محمد بن عبد الملك بن عبد الحميد[١]

أصله من مَيَّافارِقين، وانتقل إلى بغداد، فأقام بها، وكان صالحاً زاهداً، يتكلَّم على النَّاس بجامع الخليفة على السجَّادة قاعداً، وربما قام على قدميه قائماً، وكان يحفظ «نهج البلاغة»، وكان لكلامه في القلوب موقع، وتوفي في رجب ببغداد بباب أبرز، وعمره إحدى وسبعون سنة.

وله نَظْمٌ ونَثْر، فمن ذلك: اللهم إنِّي أعوذُ بك من حركات الهوى واللهو، وسكنات البلادة والسَّهو، أطلعْ ثمارَ الأماني من أغصان آمالنا، لُمَّ بلُطْفك شَعَثَ أحوالنا.

ولما حُوصرت بغداد، قال: عساكر الأقضية والأقدار مُحْدِقةٌ بأسوار الأعمار، تَهْدِمُها بمعاول اللَّيل والنهار، فلو أضاء لنا مِصْباحُ الاعتبار، لم يبق لنا سكونٌ ولا قَرَار.

وقال: الخَلْوة لقومٍ سرور، ولآخرين غرور، ولا تنظروا إلى المَجَازِيَّات الزَّائلات، وانظروا إلى الحقائق الدائمات.

وقال: اللهم، سَلِّمْ القلوبَ من سُموم الهموم، بدِرْياق الثقة بالرِّزق المقسوم.

ومن شعره: [من البسيط]

يا مَنْ يرى خدمة السُّلْطان عُدَّته ... ما أرْشُ كدِّكَ إلَّا الهَمُّ والنَّدمُ
دعِ الملوكَ فخيرٌ من طِلابك ما ... ترجوه عندهُمُ الحِرْمانُ والعَدَمُ
إني أرى صاحِبَ السُّلْطان في ظُلَم ... ما مِثْلُهُنَّ إذا قاس الفتى ظُلَمُ
فقلبُه تَعِبٌ والنَّفْسُ خائفةٌ ... وعِرْضُه عُرْضة والدِّينُ منثلمُ[٢]

السنة الخامسة والستون وخمس مئة

فيها نزل الفرنج على دِمياط يوم الجُمُعة ثالث صفر، وجدُّوا في القتال، وأقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوماً يضربونها بالمجانيق، ويزحفون عليها ليلاً ونهاراً، ووجَّه صلاحُ الدِّين إليها العساكر مع خاله شهاب الدِّين وتقيِّ الدِّين، وطلب من العاضد

(١) له ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٤٣١-٤٥٤ ، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٢٩ ، و«الوافي بالوفيات»: ٤/ ٢٤٤ ، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢١٤.

(٢) نسبت الأبيات إلى أبي الفتح البستي، وهي في «ديوانه»: ١٧٦-١٧٧ ، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

مالاً، فبعث إليه بشيءٍ كثير، فكان صلاحُ الدِّين يقول: ما رأيتُ أكرمَ من العاضد، جهَّز إليَّ في حصار الفرنج ألف ألف دينار سوى الثِّياب وغيرها.

وأشغل نور الدِّين بلاد الفرنج بالغارات، ووقع فيهم الوباء والفناء، فرحلوا في ربيع الآخر[١] بعد أن مات منهم خَلْقٌ كثير.

وفي رجب وصل نجمُ الدِّين أيوب إلى مِصْر، وكان صلاح الدين قد طلبه من نور الدين، فخرج صلاحُ الدين وجميعُ الأُمراء إلى لقائه، وترجَّل صلاحُ الدين والجميع، ومشوا في رِكابه، وقال له صلاح الدين: هذا الأمر لك، ونحن بين يديك. فقال له: يا بُني ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أَهْلٌ له. وحكَّمه في الخزائن، فكان يُطْلق ولا يردُّ أحداً.

وكَثُرَ فساد الغُزِّ، فكتب العاضد إلى نور الدين يسأله أن يكون صلاحُ الدين وأصحابه وخواصُّه مقيمين عنده، والباقون يرجعون إلى الشَّام، فلم يُجِبْه، وقال: هؤلاء فرسان الإسلام، وليس للفرنج إلا سهامهم. وكَتَبَ إلى صلاح الدين يكفُّهم عن الفساد.

وفي شعبان سار نور الدِّين إلى الكَرَك، فنازله، وضربه بالمجانيق، واجتمع ملوك السَّاحل، وجاؤوه فتأخر إلى البَلْقاء.

وفي شوال كانت بالشام زلازلُ هائلةٌ بحيث وقع مُعْظم دمشق وشرّافات الجامع، وتشقق رؤوس المنائر، وكانت تهتز مثل النخل في يوم ريحٍ عاصف، وكانت بحلب أعظم بحيث وقع نصف القلعة والبلد، فَهَلك من أهلها ثمانون ألفاً تحت الهَدْم، وتهدَّمت أسوارُ جميعِ القلاع، وخرج أهلُها إلى البراري.

ووقعت قلعة حِصْن الأكراد، بحيث لم يبق للسُّور أثر، وكذا حماة وحمص، ولولا أن نور الدين كان بالبَلْقاء والفرنج في قتاله لسار وأخذ حِصْن الأكراد.

وجاءه ما شغل قلبه من ناحية الشَّرْقِ ودمشق: أمَّا من [ناحية][٢] الشرق فوفاة أخيه قُطْب الدين مودود بالمَوْصِل، وأمَّا [من][٢] دمشق فوفاة العمادي، وكان نائبه في حلب وغيرها، وكانت له بَعْلبَكّ وتدمر، وكان عزيزاً عنده، وصاحبه وحاجبه.

---

(١) عن العماد: فرحلوا في الحادي والعشرين من ربيع الأول، انظر «الروضتين»: ٢/ ١٤٢.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وبلغه أيضاً وفاةُ مجد الدِّين ابن الدَّاية بحلب، وكان صاحبَ أمره، وسار نورُ الدِّين إلى حلب خوفاً عليها من العدو؛ لأن أسوارها تهدَّمت، وفَرَّق العساكر في القلاع خوفاً عليها من العدو؛ لأنها بقيت بغير أسوار.

وفي الزلزلة يقول العماد: [من الخفيف]

سَطْوَةٌ زَلْزَلَتْ بسُكَّانها الأَرْ ضَ وهدَّت قواعِدَ الأَطْوادِ
خَفَضَتْ من قلاعها كُلَّ عالٍ وأعادَتْ قِلاعَها كالوِهادِ

وكانت هذه الزلزلة عامةً في الدنيا، أخربت [قلاع المسلمين وبلادهم بالشَّام و[1]] حلب والعواصم وأنطاكية، ونزلت اللاذقية وجبلة، وجميعَ بلاد السَّاحل إلى الدَّاروم، و[يقال إنَّه][1] لم يمت بدمشق إلا رجلٌ واحد أصابه حجرٌ وهو على دَرَج جيرون، لأنَّ أهلها خرجوا إلى الصَّحراء.

ثم امتدَّت الزلزلة، وقطعت الفرات، فوصلت إلى المَوْصِل وسِنْجار ونَصِيبين والرُّها وحَرَّان والرَّقَّة ومارِدين وغيرها، وامتدت إلى بغداد وواسط والبَصْرة، وجميع بلاد العراق، ولم يَرَ النَّاس زلزلةً من أَوَّل الإسلام مِثْلَها أفنتِ العالم.

وفيها أمر نور الدين بعِمارة جامع داريَّا القائم الآن، وكان قديماً عند قُبَّة أبي سليمان الدّارَاني، فأحرقوه لما نزلت الفرنج على داريا في أيام مجير الدين أبق، فعمر نور الدين في هذه السنة هذا الجامع الذي في وسط القرية.

[فصل: وفيها توفي

[علي بن] هبة الله[2]

ابن محمد بن أحمد بن أبي البركات، البخاري، الفقيه الشافعي.

تفقَّه ببغداد على أسعد المِيْهني، وسمع أباه، وولي القضاء بقونية من بلد الروم.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «التكملة لوفيات النقلة»: ١/ ٢٨١ (في ترجمة ابنه علي حوادث سنة (٥٩٣هـ)، و«الوافي بالوفيات»: ٢٢/ ٢٨٣، و«طبقات الشافعية»: للسبكي: ٧/ ٢٣٨، و«طبقات الشافعية»: للإسنوي: ٢/ ١٧٤، وابنه علي سترد ترجمته في وفيات سنة (٥٩٣هـ)، وما بين حاصرتين من مصادر ترجمته، وسياق هذه الترجمة.

وابنه علي بن علي ولي القضاء ببغداد، وكنيته أبو طالب، وناب في الوزارة. ومات ابنه علي ببغداد في سنة ثلاث وتسعين وخمس مئة، وعقبه اليوم ببغداد قضاة، يقال لهم: بيت البخاري](١)

وفيها توفي

الحسين بن محمد(٢)

أبو المُظَفَّر ابن السِّيْبي البغدادي.

كان يلي ضياعاً للخليفة من بلد قُوسان، فرُفِع إليه أنَّه خان، فحبسه، فكتب إلى أهله من الحبس لنفسه: [من الطويل]

سلامٌ على أهلي وصَحْبي وجُلَّاسي ... ومَنْ في فؤادي ذكرُهُم راسبٌ راسي
أحبةَ قلبي قَلَّ صبريَ عنكُمُ ... وزاد بكم وجدي وحُزْني ووسواسِي
أعالجُ فيكمْ كلَّ همٍّ ولا أرى ... لداءِ همومي غيرَ رؤيتكُمْ آسي
خذوا الواكِفَ المِدْرار من فَيْضِ أدْمُعي ... وحَرّ لهيبِ النَّارِ من كَرْبِ أنفاسي
لقد أبدتِ الأيَّامُ لي كلَّ شِدَّةٍ ... تشيبُ لها الأكبادُ فَضْلاً عن الرَّاسِ
أقول لقلبي والهمومُ تنوشُهُ ... وقد حدَّثَتْه النَّفْسُ بالصَّبْر والياسِ
وكيف اصطباري عنكُمُ وتجلُّدي ... على فَقدكُمْ ويلي على قلبيَ القاسي
ومَنْ لي بطيفٍ منكُمُ أنْ يزورني ... على الليلة الليلاء في جُنْحِ ديماسي(٣)

حمَّاد بن منصور البُزَاعي(٤)

ويعرف بالخرَّاط، شاعر فصيح، فمن شعره: [من الرجز]

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٣١ ، و«خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١٨٥-١٨٦ ، و«الكامل»: ١١/ ٣٤٩ ، و«الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٤٠-٤١ .

(٣) القصيدة في «المنتظم» و«الكامل»: مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٤) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم شعراء الشام: ٢/ ١٣٠-١٥٢ ، و«الوافي بالوفيات»: ١٣/ ١٤٨-١٥٠، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٨٣.

تَـوَلَّـعـي يـا نـسـمـاتِ نَـجْـدِ ... بـالـشِّـيـح في ذاك الـحِـمـى والـرَّنْـدِ
لـعـلَّ ريـاكِ إذا مـا نَـفَـحَـتْ ... يـعـودُ حَـرُّ لَـوْعـتـي بـبَـرْدِ
أصـبـو إلـى ريـح الـصَّـبـا لـو أنـهـا ... تُـهـدي حـديـث الـحـيِّ فـيـمـا تُـهـدي
اسـأَلـهـا هـل صَـافـحـتْ مـواقـفـاً ... أَوَدُّ لـو صـافَـحْـتُـهـا بـخـدِّي
أَسْـتـودعُ الـلـهَ بـهـا قَـلْـبـي فـقـد ... طـال بـه بـعـد الـفِـراق عَـهْـدِي
كـان مـعـي قـبـل رحـيـلـي عـنـهُـمُ ... ثُـمَّ رَحَـلْـتُ وأقـام بـعـدي
لـهـفـي عـلـى زمـانِ قُـرْبٍ مـا وفـى ... بـمـا أُلاقـي مـن زمـانِ الـبُـعْـدِ
أبـكـي ويـبـكـي رحـمـةً لـي مـعـشـرٌ ... مـا عـنـدهُـمْ مـن الـهـوى مـا عـنـدي
تـجـمَّـعـوا فـيـك عـلـى الـحُـبِّ مـعـي ... لـكـنـنـي كـنـتُ الـمُـعَـنَّـى وَحْـدي
ويـلاه مـن شَـوْقٍ تـبـيـتُ نـارُهُ ... تـشـبُّ بـيـن أَضْـلُـعـي وجِـلْـدي
يـا بَـيْـنُ أنـجَـزْتَ وعـيـدي فـمـتـى ... تُـنْـجِـزُ أيـامُ الـلِّـقـاء وَعْـدي[1]

وقال: [من المنسرح]

مـوسـى هـواكـمْ بـجـانـبِ الـطُّـورِ ... يـسـعـى بـقـلـبٍ فـي الـحـبِّ مـكـسـورِ
حـيـرانَ فـي ظُـلْـمـة الـرَّجـاء فـهـل ... نـارُ انـعـطـافٍ تُـدْنـيـه مـن نـورِ
نـادُوه سِـرًّا بـكُـنْـهِ سِـرِّهُـمُ ... لُـطْـفـاً ونـاجـوه بـالـمـعـاذيـرِ[2]

وقال: [من مجزوء المتقارب]

تـكـلَّـمَ بـالأَدْمُـعِ ... وقـال فـلـم تـسـمـعـي
شـكـا بـالـبُـكـا لـورحـمـ ... ـت شـكـوى فـتـى مـوجَـعِ
وأشـفَـقَ يـوم الـنَّـوى ... عـلـى سِـرِّه الـمُـوْدَعِ
ودلَّ بـمـاء الـجـفـون ... عـلـى الـنَّـار فـي الأَضْـلُـعِ[3]

---

(١) القصيدة في «خريدة القصر»: ٢/ ١٣٣-١٣٤ .

(٢) الأبيات من قصيدة في «الخريدة» قسم شعراء الشام: ٢/ ١٤٧-١٤٩ .

(٣) الأبيات في «الخريدة»: ٢/ ١٤٥-١٤٦ .

طاووس أم المستنجد[١]

كانت كثيرة الصَّدقات والمعروف، توفيت في ذي الحِجَّة، وحملت إلى ترب الرُّصافة، وكان الوزير وأربابُ الدولة قياماً إلى السُّفن، وهي في الزَّبْزب، وجلس الوزير لها في العزاء ثلاثة أيام.

علي بن ثَرْوان[٢]

ابن زيد بن الحسن، أبو الحسن الكِنْدي، ابن عم تاج الدين الكندي.

كان فاضلاً، أديباً، حسن الخط، سكن دمشق، وتوفي بها، وحظي عند نور الدين، ومن شعره: [من الرمل]

هَـتَـكَ الـدَّمْـعُ بـصـوبٍ هَـتِـنِ ... كـلَّ مـا أضـمـرتُ مـن سـرٍّ خَـفِـي

يـا أخِـلائـي عـلـى الـخَـيْـفِ أمـا ... تَـتَّـقـونَ الـلـه فـي حَـثِّ الـمَـطِـيّ

محمّد بن إبراهيم بن هانئ[٣]

أبو القاسم المغربي.

من شعراء الدولة المِصْرية، ومن شعره: [من الرمل]

امـسـحـوا عـن نـاظـري كـحـل الـسُّـهـادِ ... وانـفُـضُـوا عـن مـضـجـعـي شـوكَ الـقَـتَـادِ

أَوْ خُـذوا مـنـي الـذي أبـقـيـتـمُ ... مـا أُحـب الـجـسـمَ مـسـلـوبَ الـفُـؤادِ

هـل تـجـيـرون مـحـبـاً مـن هـوًى ... أو تـفـكُّـون أسـيـراً مـن صِـفـاد

---

(١) لها ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ٢٣١-٢٣٢ ، وفيه أنها توفيت يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان.

(٢) له ترجمة في «خريدة القصر»، قسم شعراء الشام: ١/ ٣١٠-٣١٢ ، وفيه وفاته بعد ٥٦٥هـ، و«معجم الأدباء»: ١٢/ ٢٧٥-٢٧٧ ، «إنباه الرواة»: ٢/ ٢٣٥ ، «بغية الوعاة»: ٢/ ١٥٢ .

(٣) «الوافي بالوفيات»: ١/ ٣٥٢-٣٥٥ واسمه محمد بن هانئ، ولم يذكر في آبائه إبراهيم غير الصفدي، فإن كان هو ابن هانئ الشاعر المشهور، فقد توفي سنة (٣٦٢هـ) على قول ابن خَلِّكان، وسنة (٣٦٥هـ) على قول السبط، يقوي ذلك إيراده قصيدة: امسحوا عن ناظري كل السهاد، فقد أوردها الصفدي في ترجمته ١/ ٣٥٢-٣٥٥ . أما إذا كان غيره فلم أقف على ترجمته إلا أنني وجدت في «الخريدة»، قسم شعراء مصر: ١/ ٢٤٨ ترجمة محمّد بن هانئ، وكناه أبا عبد الله وقال: توفي في آخر أيام الصالح بن رزيك قبل سنة ستين، وانظر مصادر ترجمته في «السير»: ١٦/ ١٣١ .

فعلى الأيام من بعدكُمُ ... ما على الثكلاء من لبس الحداد
وحديثٍ عنكُمُ أكثره ... عن نسيمِ الرِّيح أو بَرْقِ الغوادِ
لم يزدنا القُرْبُ إلا هَجْرَهُ ... فرضينا بالتَّنائي والبِعادِ

وقال: [من المتقارب]

صهِ كلُّ آتٍ قريبُ المدى ... وكلُّ حياةٍ إلى منتهى
ولم أر كالمرءِ وهو اللَّبيبُ ... يرى مِلءَ عَيْنيه ما لا يُرى
وليس النواظر إلا القلوبُ ... وأما العيون ففيها العمى
خليليَّ هل ينفعنِّي البكا ... أو الوَجْدُ لي راجعٌ ما مضى
هلموا فذا مصرع العالمين ... ففي كلِّ قلبٍ عليه أسى
ضريحٌ سَقَتْه غِزارُ الدُّموعِ ... فما باتَ حتى سقاه الحَيَا
وما جادَهُ الغيثُ من غُلَّةٍ ... ولكن لِيبكِ النَّدى بالنَّدى

وقال في مرض بعض الأمراء: [من البسيط]

يا خير ملتحف بالجودِ والكَرَم ... وأفضل النَّاس من عُرْبٍ ومن عَجَمِ
يا ابنَ الهدى والندى والمكرمات معاً ... والحِلْم والعِلْم والآداب والحِكَمِ
لو كنت أُعطى المنى فيما أُوَمِّلُهُ ... حَمَلْتُ عنك الذي حُمِّلْتَ من ألمِ
الله يعلمُ أنِّي مُذْ سمعتُ بما ... عَرَاكَ لم أغتمضْ وَجْداً ولم أَنَمِ
أدعو وطوراً أجيل الوَجْهَ مُبْتهلاً ... على صعيد الثَّرى في حِنْدسِ الظُّلَمِ

مودود بن زَنْكي[1]

[ولقبه][2] قُطْبُ الدِّين، [أخو نور الدين محمود،][2] صاحبُ المَوْصِل.

كان أسمَرَ اللون، تامَّ القامة، عادلاً، منصفاً، ولما احْتُضِرَ أوصى إلى ولده عماد الدين زنكي، وكان أكبرَ ولده وأعزَّهم عليه، وكان الحاكم على المَوْصل فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عمادَ الدين، وكان عمادُ الدين قد أقام عند نور الدِّين بحلب

(١) له ترجمة في «الكامل»: ١١/ ٣٥٥-٣٥٦، و«الباهر»: ٩٤، ١٤٦، و«الروضتين»: ٢/ ١٦١-١٦٥، «وفيات الأعيان»: ٥/ ٣٠٢-٣٠٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٢١-٥٢٢، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

مُدَّة، وزوَّجه ابنته، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظُلْمه، فخاف عبدُ المسيح أن يعزله عمادُ الدين زنكي، فاتَّفق مع الخاتون بنت حسام الدين تمرتاش صاحب مارِدِين زوجة قُطْب الدين أن يثنوا قطب الدين عن عماد الدين، وأن يستخلف ولدَه سيف الدين غازي بن مودود، فعهد إليه، وتوفي قطب الدين وقد جاوز الأربعين، فكانت ولايته إحدى وعشرين سنة، ولما بلغ نورَ الدِّين فعلُ عبد المسيح واستبدادُه [قال: أنا أولى][(١)] بتدبير أولاد أخي من غيري. وقَصد المَوْصِل.

أبو بكر ابن الدَّاية[(٢)]

[ويلقب][(٣)] مجد الدِّين.

وكان شجاعاً دَيِّناً، من أكابر أُمراء نور الدِّين، بنى بحلب خانكاه، [وهي باقية إلى هلم جراً][(٣)] واتَّفق موتُ العمادي في هذه السنة [وكان من أعظم أمرائه][(٣)]، فبكى نور الدين، وقال: قُصَّ جناحاي. وأعطى أولادَ العمادي بَعْلَبَكَّ، وقدَّم على العساكر سابقَ الدِّين عثمان بن الدَّاية أخا مجد الدِّين، ودفن مجدُ الدين بحلب، والعمادي بقاسيون في تُرْبةٍ قريبة من تربة شركس شماليِّها، وهي أَوَّلُ تربةٍ بنيت في الجبل، واسمه مكتوبٌ[(٤)] على بابها: هذه تربة محمد بن العِمادي.

السنة السَّادسة والستون وخمس مئة

في أول المحرَّم سار نور الدين إلى سِنْجار، ففتحها، وسلَّمها إلى عمادِ الدين زنكي ابنِ أخيه، وسار، فنزل على المَوْصِل من المشرق، عَبَر من مخاضة عند بَلَد، وكان عبد المسيح قد نفَّذ عِزَّ الدين مسعود بن مودود إلى أتابك إيلدكز يسأله شفاعةً إلى نور الدين بالكَفِّ عن المَوْصِل، فجاء الرَّسول إلى نور الدين، وأبلغه الرِّسالة، فقال

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، انظر «الروضتين»: ٢/ ١٦٦.

(٢) أخباره مبثوثة في «الروضتين»، وكتب تاريخ تلك الفترة. وما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في (م) و(ش): ووقفت على باب التربة وعليها مكتوب.